بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 22 أغسطس 2017

الصّـلاة ظاهرة كونيّة: مقاربة مقارنيّة

(الدّيانة الفرعونيّة، الدّيانة الزّرادشتيّة، الدّيانة الهندوسيّة)

منجي إبراهمي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخّص:

أهداف البحث: تهدف هذه الدّراسة إلى البحث في محاور الائتلاف ومحاور الاختلاف في النّصوص التّأسيسية للأديان غير الكتابيّة، انطلاقًا من آيات الصّلاة، وذلك ببعض من النّماذج المختارة وفق قراءة علميّة تستجيب لمقتضيات الدّرس الحضاريّ في علم الأديان المقارن؛ لنبيّن آليّات التّوحيد والإيمان المتّبعة في هذه الدّيانات، من خلال طقس الصّلاة الذي أفصح عن موقف تيولوجيّ يحتوي أساليب وأشكال تعبّديّة تفنّن أتباعها في صياغتها، فجاءت على قدر كبير من التّشابه، وانتفت - بذلك - الفوارق التّاريخية المادّيّة، هذا السّلوك العمليّ يتأسّس على تكرار صيغ كلاميّة تنسجم مع الوجدان الدّاخليّ لهذه الجماعات؛ لأنّ الشّعور الدّينيّ حقيقة روحيّة في حيواتهم النّفسيّة، يتغذّى من الميثيولوجيا، وهو في علاقة تفاعل مستمرّة معها، وقد اشتملت محمولات رمزيّة لها أبعاد ميتافيزيقيّة وأنطولوجية.

محاوره: ينقسم هذا البحث إلى خمسة عناصر:

الأوّل: ركّزنا فيه النّظر إلى توق الإنسان إلى التعلّق بعالم السّماء بوساطات الآلهة الأرضيّة، في محاولة لاسترضائها بطرائق مختلفة لتبدّد للمؤمن قلقه الوجوديّ، والعنصر الثّاني: عرّفنا فيه بالفكر اللّاهوتيّ في هذه الأديان الّتي تحتوي شبكة كثيفة من المفاهيم المتعلّقة بالآلهة والكهنة، الموظّفة في طقوس الزّهد والعرفان، أمّا العنصر الثّالث؛ فقد حاولنا فيه تحليل بعض نصوص طقس تقديم القربان، بعدِّه بديلًا عن المضحّي يقدّمه إلى الآلهة لتغفر للمؤمن ذنوبه وخطاياه، وقد تقلّص دوره تدريجيًّا مفسحًا المجال للقربان الرّوحيّ بالصّلاة، أمّا العنصر الرّابع؛ فقد حاولنا فيه الوقوف على بعض التّرانيم والتّراتيل الّتي تتغنّى بعظمة الآلهة ومجدها، وخلصنا إلى أنّ هذا الطّقس بلغ درجة كبيرة من التّطوّر والرّقيّ، والعنصر الأخير: بحثنا فيه عن آليّات التّوحيد والإيمان ذات الطّابع العرفانيّ، فهذه العبادة يسعى المؤمن من خلالها إلى الاتّحاد بمعبوده بعد التّطهّر الرّوحي من المآثم والخطايا.

*****

عرفت جميع الحضارات البشريّة العبادات، وأولتها مكانة مهمّة؛ لأنّها تحقّق الطّمأنينة للوجود الرّوحيّ للفرد الّذي راح يتصوّر آلهة، وينسج لها الأساطير والملاحم، ويقرّب لها القرابين، ويؤلّف الأناشيد والصّلوات الّتي تتغنّى بعظمة الإله، وكان المؤمن (الفرعونيّ والهندوسيّ والزّرادشتيّ...) يطلب بركات الآلهة لتحفظ له وجوده الآنيّ هو وعشيرته، وتحقّق له الوجود التّالي الخالد الباقي؛ فالإنسان مسكون بحب البقاء، وقد حاولنا - في هذا البحث - الوقوف على أوجه الائتلاف وأوجه الاختلاف حول ظاهرة الصّلاة في النّصوص التّأسيسيّة لكلّ من: الدّيانة الفرعونيّة، والدّيانة الزّرادشتيّة، والدّيانة الهندوسيّة؛ فاللّاهوت العمليّ الّذي ورد في هذه النّصوص المقدّسة يحتوي على أساليب وأشكال تعبّدية تفنّن المؤمنون في هذه الديانات - غير الكتابيّة - في صياغتها، فجاءت على قدر كبير من التّشابه، وبذلك انتفت الفوارق التّاريخيّة المادّيّة؛ فالوجود الرّوحيّ للمتديّن تحكمه الفطرة الإنسانيّة؛ لأنّها المسيطرة على المشاعر الدّينيّة والمحرّكة لملكة الخيال، فكانت جميع الكائنات المعبودة آلهة سماويّة، والأعمال الّتي تؤدَّى لخدمتها طقوسًا، والغاية من استعطاف الآلهة تواصل وتجدّد الحياة.

وعلى الرّغم من الاختلاف الكبير بين اللّغات الّتي أُلِّفت بها الصّلوات في تلك الدّيانات؛ فإنّها حفلت بمفاهيم دينيّة متقاربة ومتشابهة، والمؤمن يمارس العبادات الطقسيّة (كتقديم القرابين الحيوانيّة والنّباتيّة، وإقامة الصّلاة بالسّجود والرّكوع)، وهذه الشّعائر تعبّر عن نشاط روحيّ بلغ حبّ الاتّحاد بالذّات الإلهيّة، فأصحاب هذه الأديان عرفوا الإيمان بتجاربهم التعبّدية الخاصّة، ووصلوا إلى فكرة التّوحيد، وإن كانت في ظاهرها شركًا؛ فهي في باطنها إيمان بالإله الشّمسيّ ذي الطّبيعة النّورانيّة.

1. حاجة الإنسان إلى عبادة الآلهة:

أحسّ الإنسان بالعجز والضّعف أمام قوى الطّبيعة، فسعى إلى السّيطرة عليها باستخدام السّحر والتعاويذ علّه يستطيع مواجهتها، فصنع آلهة وعبدَها لاِسترضائها بطرائق مختلفة، وفي كلّ مرحلة من مراحل الوعي البشريّ ينقل لنا التّاريخ الأساليب البدائيّة الأولى التي حاكى بها الإنسان القوى الخفيّة المحيطة به، وعلى مرّ الزّمن لم توجد أمّة دون عبادة، فحتّى أقدم المجتمعات البشريّة وأكثرها تخلّفًا وجهلًا لم تعش بمعزل عن الطّقوس الدّينيّة، وإن لم تعرف العلوم والمعارف؛ فالإنسان عرف المقدّس منذ وجوده، والمعابد والمقابر الّتي اكتشفها علماء الآثار «تجرّ وراءها آلاف السّنين من التّطوّر»[1]؛ لأنّها لم تنبثق في لحظة زمنيّة معيّنة انتشر فيها الدّين على جميع الأمم، كما درس مؤرّخو الأديان وعلماء الأنثروبولوجيا النّتف المتبقية من الحضارات الغابرة الّتي يكاد يكون التّصديق بها ضربًا من الأسطرة؛ فهذه المعالم الأثريّة ملغزة بالفكر الدّينيّ؛ لأنّها ثمرة تفكير وتجارب الأسلاف الّذين واجهوا قوى الطّبيعة وجهًا لوجه، فحين شعر الإنسان بالدّهشة

1- فرويليش (جـ. س): ديانات الأرواح الوثنيّة، ترجمة: يوسف شلب الشّام، مطبعة دار المعلّم، ط 7، 1988م، ص 24

والاستغراب طرق بالإيمان بابًا لم يكن ليطرقه بالعقل والعلم، وأقام علاقة روحيّة حميمة بينه وبين معبوده، وسعى إلى استرضائه بالتّقدمات والقرابين - النّباتيّة والحيوانيّة - وبإقامة شعائر طقسيّة متنوّعة، «فالشّعور الدّينيّ الّذي يُظهره الإنسان تجاه المقدّس؛ هو الذي يجعل إيمانه بحقيقة الكائنات الإلهيّة أمرًا ممكنًا»[2].

ويحتوي الدّين - حتّى في أقدم مظاهره - جانبين اثنين: الأوّل ظاهريّ؛ يتمثل في تلاوة التّراتيل أو التّرانيم الشّفويّة، وإقامة الطّقوس، والثّاني: نشاط باطنيّ روحانيّ (التّصوّف، اليوغا، النّرفانا، ...إلخ)، مارسه الإنسان في الحضارات القديمة عندما كان يعيش حياة عزلة وتوحّش، يقتات من جني الثّمار وصيد الحيوانات للاستمرار في الحياة والحفاظ على النّوع البشريّ، وتأمّل في الكون فعرف أنّ فيه قوّة خفيّة هي الضّامن الوحيد لبقائه، و«تبدو هذه القوّة الخفيّة– قوّة التّغذية والتّناسل - من المقدّسات، ويقف الإنسان منها موقف الانفعال العميق والاهتمام الشّديد، ويعزوها إلى قوّة خارقة فوق إدراكه المحدود وطاقاته المألوفة»[3]، فالإنسان أولى أهميّة قصوى لآلهته، ونسج حولها العديد من الأساطير والملاحم، ويتجلّى ذلك بوضوح في الحضارة البابليّة؛ إذ ألهبت الآلهة عشتار (ربّة الحبّ والحرب) قلوب شعبها، وكذلك ما جرى في الحضارة المصرية القديمة؛ حيث توجد المعابد الشّاهقة المتقنة البناء، فالإنتاج الفكريّ في العالم القديم انشغل بالمقدّسات ليستعطف قلوب الآلهة، كي تمنح رعاياها الرّعاية والصّحّة والبركة، فالدّين يحقّق التّماسك والوحدة للمجموعة البشريّة، «ومهما أوغلنا في الرّجوع إلى الماضي وجدنا ظلّ الآلهة حيثما نكتشف تراث الإنسان، وقد نشأ الدّين في كلّ زمان ومكان بسبب شعور النّاس بالحاجة إلى البحث عن تركيب يقيم الانسجام بين الأنا الشّخصيّة والعالم الخارجيّ؛ بل يقيم الانسجام بصورة أدقّ بين هذه الأنا والقدرة الّتي يُعزى إليها توجيه الأشياء جميعًا؛ بل وتوجيه المصير الإنساني الخاصّ»[4]، والفكر الدّينيّ لم تخلُ منه حضارة إنسانيّة؛ سواء أكانت ديانتها غير كتابيّة أو سماويّة، وملأت المعتقدات والصّلوات والطّقوس الفراغ الرّوحي للإنسان؛ «إذ يشتمل عنصر العقيدة على زيادة لا يشتمل عليها عنصر الأسطورة، وهي زيادة الالتزام الأخلاقيّ، والشّعور الأدبيّ - من جانب الرّبّ المعبود - بالطّاعة والولاء، والأمل، والمعونة، والرّحمة»[5]، والدّين واحد ومشترك بين جميع الخلق؛ فهو شعور روحيّ فطريّ لدى جميع البشر، والغاية منه واحدة لدى جميع الأمم، لكنّ وسائل التّعبير عنه عديدة متنوّعة؛ فكلّ عشيرة تتصوّر إلهها انطلاقًا من المناخ الّذي تحيا فيه؛ فالاحتكاك بعناصر الطّبيعة يولّد لدى الفرد الشّعور الدّينيّ الأوّل، ومنه تنطلق محاكاة الأسرار الكونيّة الّتي يعجز الإنسان عن إيجاد تفسير لها.

2- «c'est au contraire le sentiment qui éprouve l'homme vis-à-vis du sacré qui rend possible sa croyance en la réalité d'être divins » Meslin (Michel): Pour une science des religions, au éditions du seuil, imprimé en France, p 46

3- سعيد (حبيب): أديان العالم، صدر عن دار التّأليف والنّشر الكنيسة الأسقفيّة، القاهرة، (د.ت)، ص 12

4- جيب (هاميلتون): علم الأديان وبنية الفكر الإسلاميّ، ترجمة: الدّكتور عادل العوّا، ط 1، أكتوبر، 1977م، ص 70

5- العقّاد (عبّاس محمود): الله، نهضة مصر، ط 3، ديسمبر، 2003م، ص 6

2. مدخل[6] للتّعريف بالأديان المعنيّة بالدّرس: (المصريّة القديمة والهندوسيّة والزّاردشتية):

أ. الدّيانة المصريّة القديمة:

تُعدّ الحضارة المصريّة من أعرق الحضارات الّتي وُجدت يومًا على ضفاف النّيل، وقد أدّت فيها ألوهيّة الفرعون إلى تقوية إيمان الشّعب وتطوير شعوره الدّينيّ؛ فتشابهت العبادات الطّقسيّة لدى الكهنة في جميع المعابد تقريبًا، خاصّة، بعد اتّحاد مملكة مصر السّفلى مع مملكة مصر العليا في بداية الألف الثالث قبل الميلاد تقريبًا، وقد عرف المصريّون القدماء السّجود والرّكوع للآلهة ذات الرّؤوس الحيوانيّة، كما عرفّوا التّرانيم المستخدمة في الصّلاة، «وكانت الأناشيد المتواجدة في نصوص الأهرامات ليست إلّا مدائح أسطوريّة للآلهة»[7]، وآمنوا بحياة أخرى هي حياة ما بعد الموت، ففكرة الخلود سيطرت على المصريّ القديم، والأهرامات والمقابر بُنيت بإبداع وإتقان، كما تُبيّن الرّسوم الجداريّة أهميّة الدّين في حياة الفرد آنذاك؛ فهو يقوم بطقوس وتقاليد قربانيّة تمتزج بالسّحر والعرافة، هذا فضلًا عن الأساطير المتعلّقة ببداية الكون، وكيفيّة خلق إله الشّمس، وما تحفل به الأرض السّفلى من محاكمات وعقوبات في عالم الموتى، إلّا أنّ الثّابت هو أنّ المعتقدات الدّينيّة في الحضارة الفرعونيّة عرفت طورين كبيرين: الأوّل: يتمثّل في عصر الدّولة القديمة، والثّاني: يتمثّل في عصر الدّولة الحديثة مع أميتحوب الرّابع من الأسرة الثّامنة عشر، الّذي تَسمّى بأخناتون وصاغ مفهوم التّوحيد؛ فالحياة الدّينيّة في عصر الفراعنة بلغت أعلى درجات الكمال والترقّي، والمصريّ في ذلك الحين استطاع أن يتجاوز التديّن الفطريّ البسيط (محاكاة الطّبيعة) بصياغة مفاهيم وعقائد دينيّة تبرهن على قوّة اللّاهوتيّين (الكهنة) في المعابد، «وكان المؤدّي الرّئيس للخدمة هو (خادم الإله)، وكانت تُرتّل التّعاويذ بواسطة «الكاهن المرتّل/ (Kher hebet)؛ أي القائم على كتاب احتفالات الأعياد»[8]، وكان الملك هو الشّخص الوحيد المخوّل له القيام بالطّقوس والشّعائر الخاصّة بالاحتفالات والأعياد الدّينيّة (عيد الوادي، عيد السّد، ...إلخ).

إنّ عقيدة الشّمس الفرعونيّة ممتدّة في الحضارات المجاورة، وإله الشّمس كان اسمه في اليونانيّة: هليوس (Helios)، وفي الجرمانيّة القديمة: سانيل (Sanil)، وفي السّلافية القديمة: سالنس (Salence)

6- مدخل: أردنا من هذا العنصر أن نعرّف بهذه الأديان الّتي ستكون محور عملنا في هذا الفصل، في قراءة تأليفيّة موجزة، كي لا يكون العمل المقارنيّ التّطبيقيّ اللاحق مسقطًا، ولتكون الرّؤية أوضح.

7- «Les hymnes contenus dans les textes des pyramides ne sont guère que des louanges-surtout mythologiques – des dieux», Poupard (Paul), Dictionnaire des religions, Presses Universitaires de France, 2e édition corrigée: 1985 Janvier, p 1349

8- تشرني (ياروسلاف): الدّيانة المصريّة القديمة، ترجمة: د. أحمد قدري، دار الشّروق، ط 1، 1996م، ص 161.

وكلّها تدلّ على الشمس»[9]؛ فالآلهة الشّمسيّة ذات مكانة رفيعة في أديان العالم القديم، وعبادتها متشابهة إلى حدّ كبير.

ب- الدّيانة الهندوسيّة:

نشأت في بلاد الهند العديد من الأديان، لكنّ الهندوسيّة تعدّ الدّيانة الأكثر انتشارًا؛ فهي دين أغلبيّة السّكان، وتحتوي آراء فلسفيّة وتقنيّات خلاص (النّرفانا) وزهد، ومن أهمّ كتبهم المقدّسة: الفيدا (veda)، ومؤسّسها غير معروف؛ فهي ضاربة في القدم، ولها جذور آريّة، وقد «تمّ التّعرف على الجذر الهندوروبيّ (المختصر منذئذ): ديفوس(Deiwos) (سماء)، وفي المصطلحات الدّالة على الله (Dieu)، في اللّاتينيّة: (deus)، وفي السّنسكريتيّة: (deva)، وفي الإيرانيّة: (div)، وفي اللّيتوانيّة: (dievas)، وفي الجرمنيّة القديمة: (tivar)، وفي أسماء الآلهة الأساسيّين: دايوس (Diewas)، زوس (Zous)، جوبيتر؛ ففكرة الآلهة تبدو متضامنة مع القداسة السّماويّة؛ أي النّور والمفارقة أو التّصاعد والسّمو، وبتوسيع الفكرة للسّيادة الإبداعيّة في معناها المباشر»[10].

ويؤمن الهندوس بكثرة الآلهة والمعبودات، وكانت نار التّضحية والقرابين تشغل حيّزًا كبيرًا من عباداتهم في العصور الكلاسيكيّة، إلّا أنّهم تخلّوا عن هذا الفكر تدريجيًّا، وما زالت آثاره راسخة إلى اليوم، كما احتوت كتاباتهم المقدّسة على «أناشيدهم وصلواتهم وخرافاتهم ومعارفهم المقدّسة»[11]، وكانوا يؤمنون بآلهة متعدّدة (فارونا إله أوليّ، ديفا، أندرا، ميثرا، آغني، الإله سوما، ...إلخ)، لكنّ هناك ثلاثة آلهة رئيسة هي المسيطرة على العالم:

براهما: هو الخالق، ويظهر في أسفار الفيدا راكبًا إوزّة بيضاء، وسيفا: هوّ الإله المدمّر المهدّد، و«صوّروه بجسد أزرق وحلق قاتم تحيط به الثّعابين»[12]، وفشنو: الإله الحافظ، «ويرسمه الهنود - عادة - بأربع أذرع، يمسك باليدين صولجانًا وقرصًا من حديد رمزًا لقوّته الملكيّة، وباليدين الآخرين يمسك صدفة بحريّة وورقة اللّوتس، رمزًا لقوّته السّحريّة ونقاوته الطّاهرة، وفوق رأسه تاج وإكليل».[13]

9- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات والأفكار الدّينيّة، ج 1، ترجمة: عبد الهادي عبّاس، مطبعة دار دمشق، ط 1، 1987-1986م، ص 236

10- المرجع نفسه، ج 1، ص 236. ولإلياد بحوث أخرى تتعلّق بالجانب الوجدانيّ للدّين، منها:

كتابه: Images et symboles, essais sur le symbolisme magico-religieux.

11- ميغوليفسكي (أ.س.): أسرار الآلهة والدّيانات، ترجمة: حسّان ميخائيل إسحاق، ط 3، 2007م، ص 104

12- سعيد (حبيب): أديان العالم، (سبق ذكره)، ص 78

13- المرجع نفسه، ص 79

وقد صيغت حول هذه الآلهة أساطير ونظريّات خلاص لاهوتيّة موغلة في الرّوحانيّة، وقد مرّ التّاريخ الدّينيّ الهندوسيّ بثلاث مراحل كبرى: عصر الفيدا، وعصر البراهمن، وعصر الأوبانيشاد، ومن أهمّ المدارس الفلسفيّة نذكر: مدرسة اليوغا، ومدرسة نيابا، ومدرسة ميمانسا، ويؤمن الهندوس بنظريّة تناسخ الأرواح البشريّة، وهي ديانة ممتزجة بالبوذية[14]*، والمتديّنون يقدّمون القرابين، ويرتّلون الصّلوات، ويمارسون اليوقا.

ج- الدّيانة الزّرادشتية:

سادت في بلاد فارس ديانة زرادشت[15]* (Zoroaster)، وكان أتباعه يسجدون للنّار الّتي ترمز للرّب الحكيم أهورامازدا (Ahura Mazda)، أو أورمزد (ormuzd)، ونبذ زرادشت عبادة "الآلهة الّتي آمن بها الآريّون، وأبطل أساطيرهم وتقدّماتهم، وأخضعها كلّها للإله الواحد في صراع بين الخير والشّرّ، وقد لخصّ المؤرّخون - فيما بعد - تاريخ هذا الرّسول وتعاليمه وحياته وأعماله من مجموعة الأناشيد الموزونة، الّتي يسمّونها (Gatha) وهي الأسفار المقدّسة"[16]، وقد ثار زرادشت على معتقدات أسلافه وآلهتهم الوثنيّة المتعدّدة، وكرّس فكرة الإله الواحد خالق الكون «الّذي صنع تحت إمرته خلائق إلهيّة، أو صفات مجسّمة له، أسماها: (الفكر الخيّر)، و(البرّ)، و(الفلاح)، و(التّفكير الصّائب المشفق)، و(الخلود)»[17]، ونسب للعالم أصلين خُلقا قبل إنشاء الكون، هما: روح الخير وروح الشّرّ، كانا يلتقيان فيه، وهما في صراع دائم، وعلى العبد أن يختار في أفعاله بين الخير والشّرّ.

اشتمل اللاّهوت الزرادشتي على الدّينونة والحشر والجنّة، وهي: مفاهيم قريبة من اللاّهوت الفرعونيّ، واللاّهوت في الأديان السّماويّة (اليهوديّة، المسيحيّة، الإسلام)، والنّار في التّصوّر الزّرادشتيّ، هي: رمز الرّب آهورامازدا، وقد تجلّت في «مظاهر مختلفة: النّار السّماويّة، نار الصّواعق، والنّار الّتي تمنح الجسد البشري الحياة والدّفء، والنّار الّتي كانوا يشعلونها في المعابد الزّرادشتيّة»[18]، وكانوا يؤمنون بالتّكرار الشّعائريّ الأضحويّ أمام النّار المقدّسة لإعادة نشأة الكون، فآهورامازدا أكرم تيستريا بأضحية فانتصر ضدّ الدّيفا (قوى الشرّ)، كما ضحّى - أيضًا - لأناهيتا وڤايو، وكانت القرابين تتّخذ منحىً رمزيًّا في الأفيستا،

14*- البوذيّة: ديانة منتشرة في القارة الآسيويّة، وأغلب كتبها المقدّسة مدوّنة بالسّانسكريتيّة، مؤسّسها بوذا عاش بين القرنين الخامس والسّادس قبل الميلاد، واسمه الشّخصيّ سيدهارتا، وكلمة بوذا معناها: المستنير، ومن أهمّ عقائد هذه الدّيانة؛ ممارسة اليوقا للوصول إلى الحقائق النّبيلة الأربع.

15*- زرادشت: "عاش زراتوشترا- مؤسّس الدّيانة الجديدة- في الرّبع الأخير من الألف الثّاني ق. م، وسادت ديانته الجديدة في إمبراطوريّات الفارسيّة حوالي الألف والخمس مائة عام (من القرن 6 ق م- حتّى ق 7 م)، وقد عرفت هذه الدّيانة بالدّيانة الزّرادشتيّة، وكان الإغريق القدماء قد حوّلوا اسم مؤسّس هذه الدّيانة من زراتوشترا إلى زراواسترا، وعدّوه حكيمًا منجّمًا (فالجذر آسترا مأخوذ من كلمة آسترون = نجم)، ثمّ أخذ الآخرون عن الإغريق هذا التّجديد. "أ.س.ميغوليفسكي: أسرار الآلهة والدّيانات، ص 73

16- سعيد (حبيب): أديان العالم، (سبق ذكره)، ص ص 150- 151

17- سعيد (حبيب): أديان العالم، (سبق ذكره)، ص 151

18- ميغوليفسكي (أ.س.): أسرار الآلهة والدّيانات، (سبق ذكره)، ص 77

وكان لهم كهنة يهتمّون بتنظيم عباداتهم (وليّ البرّ والتّقوى بهرام، كاهن الخدمة، ...إلخ)، ولهم أعياد دينيّة، ويمارسون طقوس التّطهّر.

لقد امتزجت الدّيانة الزّرادشتيّة «بميثيولوجيّات الموت والمفاهيم ذات العلاقة مع الوجود التّالي للرّوح»[19]، كما أمر زرادشت أتباعه بالصّلاة وتقديم القرابين، وتغذّت هذه الدّيانة من فلسفة الأديان الأخرى، وانفتحت على آلهتها الّتي عُدّت في دائرة الرّب الحكيم كالإله ميثرا[20]* (إله الشّمس).

من خلال هذه اللّمحة الوجيزة عن المعتقدات في الأديان غير الكتابيّة (المصريّة القديمة، الهندوسيّة، الزّرادشتيّة)، تبيّن لنا أنّها تشترك في جملة من الأسس؛ (كالأضاحي، طرائق التنسّك، ...إلخ)، وهذه الآليّات - جميعها - يبحث بها العبد المتديّن عن خلاص يتجاوز حياة الألم والشّقاء، ويرجو أن ينال بها بركات الآلهة ورضاها، وإن احتوت على مفهوم الوحدانيّة بأشكال تطوّرها المختلفة - على الرّغم من تباعدها زمانيًا وجغرافيًا - وخضعت شعوبها لفكرة الإله السّماويّ من خلال ما حفلت به من أساطير تعلّل الوجود - الفعليّ والحقيقيّ - للآلهة، فجاءت طقوس العبادة متشابهة.

3. الطّقوس القربانيّة[21]:

تُعدّ الطقوس القربانيّة العبادة الأقدم؛ إذ تشكّلت في المراحل الأولى من تاريخ البشريّة، ذلك أنّ القربان بمثابة بديل عن المضحّي يقدّمه للآلهة حتّى تغفر ذنوبه وخطاياه، وقد انتشرت هذه العبادة بشكل واسع وكبير في العالم القديم، وليس أدّل على ذلك من الحضارة المصريّة القديمة الّتي مازالت آثارها شاهدة على ذلك في المقابر والمعابد، كما اشتملت الدّيانة الهندوسيّة - في مختلف مراحلها - (في عصر الآلهة الفيديّة، قبل غوتاما بوذا، البراهمانيّة والهندوسية) على كمّ هائل من القرابين المختلفة الرّموز والوظائف، وعرفت الزّرادشتيّة هذا الطّقس؛ إذ «تدعّمت النيّة الآخرويّة للأضحية باستمرار»[22]، لكن سرعان ما تحوّل القربان من وضعه الأصل، وأصبح مجرّدًا يرمز إلى الرّوحانيّة في كلّ من الدّيانتين الهندوسيّة والزّرادشتيّة، وأصبح لازمة في الأدعية والتّرانيم والصّلاة؛ (كطقس الصّلاة في تقديم القربان في الهندوسيّة، وتقديم القرابين من قبل الكاهن

19- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات، ج 1، (سبق ذكره)، ص 402

20*- ميثرا: كلمة "تعني: الوفاق، الاتفاق، وفي أوائل التاريخ الميلاديّ كان الإله ميثرا واحدًا من أكثر الآلهة تبجيلًا في آسيا الوسطى وشمالي الهند زمن الدّولة الكوشانيّة الجبّارة، لقد عبده الملوك الأخمينيّون، والملكان العظيمان (قورش الأصغر وداريوس الأوّل) (...)، وقد ظهرت عبادة الإله ميثرا منذ القدم (في الألف 4 ق.م)؛ فهو حاضر في الفيدات والأفيستا مهمّته هي ضمان سير حياة المجتمع سيرًا طبيعيًا"، م.ن، ص 87

21- الطّقوس القربانيّة: حاولنا في هذا العنصر أن نبيّن العلاقة الرّوحيّة المتميّزة التي تربط بين المتدين والقربان؛ فهو يوفّر له الحماية من قوى الطّبيعة، وييسّر له التّواصل مع الآلهة، كما يهيّئه للحياة الأخرى من خلال القرابين الأضحويّة والتّقدمات النّباتيّة، وقد تحوّل- في الدّيانتين الهندوسيّة والزّرادشتيّة- إلى قربان رمزيّ (عن طريق الكلمة في التّرانيم والأدعية وغيرها)، لكنّه حافظ على وظيفته الأصل؛ المتمثّلة في إعادة تجديد الكون، فالقربان حاضر في قلب كلّ طقس في هذه الدّيانات، وقد حاولنا أن نوضّح وظيفة القربان ورمزيّته؛ لأنّ العمل على الصّلاة في مستوى لاحق يقتضي منّا الوعي المنهجيّ الذي يتطلّب تأصيل المسألة بالعودة إلى القربان.

22- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات، ج 1، (سبق ذكره)، ص 401

مع تسمية مادّة النّذر في الزّرادشتيّة، ...إلخ)، وهنالك فصول كثيرة من كتاباتهم المقدّسة معنونة بالقرابين، وكانت الأهميّة الكبرى موجّهة نحو القرابين المقدّمة إلى الآلهة الّتي حظيت بوقار كبير، فعبدها الشّعب، وآمن بها لتعطف عليه بالخير والبركة، ومن شدّة تعلّقه بها قرّب إليها الهدايا والأطعمة، وأقام لها المذابح والمحرقات لتعيد خلق العالم، وخير دليل على ذلك ما وقع في ديانة المصريّين القدماء؛ فكان «الإله تحوت يتقبّل البخور من الملك رمسيس الثّاني»[23]، وفي الهندوسيّة - في العصر الفيديّ - كي يروي الإله ظمأه «يشرب بحيرة كاملة من المشروب المقدّس (السّوما)، وكي يُشبع جوعه يلتهم ثلاث مائة ثور»[24]؛ فآلهة العصور القديمة حُمِّلت بصفات تشبه الطّبيعة البشريّة؛ لأنها تأكل ممّا يأكل الإنسان، ويسهر على رعايتها وخدمتها كهنة وآلهة، مثل: الإله آغني؛ الّذي كانت مهمّته حمل القرابين إلى الآلهة، وهم يعتقدون أنّه حاضر في قلب كلّ طقس يقام، وفي الزرادشتيّة: عُدّت القرابين رمزًا لتقديس الآلهة والاحتفالات السّنويّة: «بقرابيننا نقدّس أوشاهين، بريجا، نمانيا وسراوش...»[25]، «بقرابيننا نقدّس الاحتفالات السّنويّة»[26].

والقرابين تقدّم للآلهة بين الحين والآخر حسب رغبة الشّخص وحاجته في قضاء شؤونه، وكانت تقدّم قرابين نباتيّة وأطعمة مطبوخة وأخرى حيوانيّة (أضحوية)؛ فالإنسان يقدّم القرابين إلى الآلهة المنحوتة على شكل تمثال أو صورة، وكانت القرابين الأضحويّة - في الغالب الأعمّ - من الحيوانات البرّيّة الّتي كانوا يقتاتون عليها بالصّيد؛ كالغزلان، والإوز الّذي يعيش في النّيل، والجاموس، والعنز البرّيّ، وهذا الطقس محمّل بالرّموز والدّلالات، ومن وظائفه المساهمة في إعادة نشأة الكون؛ ففي الزّراديشتيّة استعمل الرّبّ الحكيم الأضاحي للانتصار على قوى الشّرّ (الدّيفا)، «ويكرم آهورامازدا تيستريا، وذلك بأن يقدّم له أضحية»[27] وأخرى لأناهيتا (ربّة الماء والخصب)، وأضحية أخرى لقايو، ويرجوه أن يمنحه إحسانه «فالوظيفة الافتدائيّة للدّين الجيّد تدعّمت تباعًا بتمجيد القوّة الخلاّقة للشّعيرة، وبما أنّ الهدف الشّامل كان إعادة التّجديد العالميّ»[28].

وعند الفراعنة كان على الملك أن يتطهّر باعتباره كاهنًا أعلى، حتّى يتمكّن من تأديته الخدمة الدّينيّة اليوميّة الّتي تضمّ مراحل كثيرة، من أهمّها: تقديم العسل إلى الإله في الوجبة المقدّسة؛ «إذ يُطهّر المذبح، ويضع الطّعام والشراب أمامه، ويرفع الكاهن كلّ لون من ألوان الطّعام مقدّمًا كلًّا منها على التّتابع»[29]،

23- تشرني (ياروسلاف): الدّيانة المصريّة القديمة، (سبق ذكره)، ص 25

24- ميفوليفسكي (أ.س): أسرار الآلهة والدّيانات، (سبق ذكره)، ص 106

25- عبد الرّحمن (د.خليل): الأفيستا؛ الكتاب المقدّس للدّيانة الزّرادشتيّة، هايتي 4 (يتم تقديم القربان)، آية 6، روافد للثّقافة والفنون، ط 2، 2008م، ص 121

26- المرجع نفسة، آية 8، (سبق ذكره)، ص 121

27- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات والأفكار الدّينيّة، ج 1، (سبق ذكره)، ص 400

28- المرجع نفسه، ج1، ص 402

29- تشرني (ياروسلاف): الدّيانة المصريّة القديمة، (سبق ذكره)، ص 104

أمّا عند الهندوس؛ فالحصان المضحَّى به (أسڤاميدها/ Asva, mdha)، وهذا الحصان القربان بمثابة الإله براجاباتي، وهذه الشّعيرة من «أصل هندوأروبيّ، وتوجد آثار له عند الجرمن والإيرانيّين والإغريق، واللّاتينيّين، والآرمن، والماساجيت، والدّالمات، لكنّ هذا المشهد الأسطوريّ الشّعائريّ لم يحصل سوى في الهند، على كل معتبر في الحياة الدّينية وفي التعاليم اللاّهوتية، ومن الرّاجح أنّ الأسفاميدها كانت - في الأصل - عيدًا ربيعيًّا، وبدّقة أكثر، شعيرة يُحتفل بها بمناسبة العام الجديد، إنّ تركيبتها تتضّمن عناصر نشكونيّة: فمن جهة أنّ الحصان موّحد الكون (cosmos/ براجاباتي)، والتّضحية به ترمز (أي تعيد إنتاج) فعل الخلق (...)، إنّ الأضحية مخصّصة لتجديد الكون بكامله»[30].

وفي الدّيانة الفرعونيّة: عرفت المدارس الدّينيّة (مدرسة هيرموبوليس، مدرسة ممفيس، ...إلخ) أساطير نشكونيّة متعدّدة، ترمز - كلّها - إلى فعل الخلق الأوّل، وتُحيل على تجدّد الحياة في العالم الآخر التي يمنحها إله الشّمس قاهر الموت، ومع تطوّر العبادة في عهد الدّولة الحديثة، حافظ طقس القرابين على قداسته ولم يندثر، و«خضوعا للمحافظة الّتي تميّز بها المصريّون القدماء؛ فإنّ الصّفة الخاصّة للطّقس اليوميّ الأكثر تقدّمًا - أي الوليمة - لم يتم التخّلي عنها نهائيًا، لكنّها أُدمجت في الطّقس الشّمسيّ الجديد»[31].

لئن اختلفت القرابين (نباتيّة، حيوانيّة، عطور، أطعمة، ...إلخ)، وتفرّعت الأغراض الموظّفة لها، إلّا أنّها تشترك - كلّها - في الحفاظ على الحياة، وقد تكون الهدايا (الهبة) المقدّمة إلى الآلهة معبّرة عن الشّكر، أو قد تكون رمزًا للاتّحاد بالعالم السّماويّ.

إلى جانب القرابين المقرّبة للآلهة توجد قرابين أخرى للموتى؛ إذ استحوذوا وقارًا واحترامًا كبيرًا، ونقشتعلى قبورهم الأدعية، ووضعت إلى جانبهم أدواتهم الّتي كانوا يستعملونها في أعمالهم الدّنيويّة (أسلحة، ذهب، ...إلخ)، «فالمصريّ احتجز جزءًا معيّنًا من ثروته، وأوقف دخلها على ضمان إمداده بالقرابين المتعلّقة بالطّقوس الجنائزيّة في مقبرته، ويذهب جزء من هذا الدّخل إلى (خدم القرين) الّذين كان عليهم صيانة المقبرة والماء، والطّقوس الجنائزية المتعلّقة بتقديم قرابين الخبز وسكب الماء أمام تمثال الميّت»[32]، ويوجد تشارك بين هذه الدّيانات في فكرة القربان مع اختلاف في كثافة استعماله، لكنّ وظيفته واحدة تُعبّر عن علاقة العبد بإلهه، ويعبّر - أيضًا - عن الحنين إلى العود الأبديّ بالاعتقاد بحياة ما بعد الموت؛ فهو الشّعيرة الطقسيّة الأقدم والأكثر تداولًا، لكن - بمرور الزّمن - تراجع دور القربان - شيئًا فشيئًا - مفسحًا المجال أمامه لقوّة الكلمة بالصّلاة.

30- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات والأفكار الدّينيّة، ج 1، (سبق ذكره)، ص 271

31- تشريني (ياروسلاف): الدّيانة المصريّة القديمة، (سبق ذكره)، ص 135

32- المرجع نفسه، ص 152

4. الصّلاة:

تُعدّ الصلاة الشّعيرة الطقسيّة الأكثر تطوّرًا ورُقيًّا في تاريخ الأديان؛ فقد سارت - جنبًا إلى جنب - مع القربان؛ لأنّه كان يحظى بقبول وممارسة أكثر شموليّة وتعقيدًا من الصّلاة، وعلى باحث الأديان المقارنة أن لا يغفل الحديث عن الطّقس القربانيّ في غمار بحثه عن الصّلاة؛ الّتي تعبّر عن علاقة روحيّة بين العبد وآلهته، وفي العهد الفرعونّي كانت الصّلاة أشبه بتعاويذ سحريّة؛ «فهي منسوجة بخيوط أسطورة تغصّ بالإشارات (الميثولوجيّة)، ممّا يجعل استقرارها - فضلًا عن فهمها - أمرًا بالغ التّعقيد»[33]، وكانت الصّلوات مستعملة بكثرة في الدّيانة الهندوسيّة؛ فصلاة الصّبح - مثلًا - يؤدّيها المصلّي واقفًا في مكانه منتظرًا شروق الشّمس، وصلاة أخرى في آخر النّهار يؤدّيها جالسًا في مكانه منتظرًا ظهور النّجوم في السّماء، إضافة إلى صلوات أخرى جماعيّة تؤدَّى في المعبد، كما عرف قدماء المصريّين والهندوس التّسبيح، أمّا أتباع الدّيانة الزّرادشتيّة؛ فقد كانوا يذكرون الرّب صباحًا وقبل النّوم، ولدى خروجهم من المنزل ودخولهم إليه، كما كانت لهم صلوات جماعيّة أخرى في معابد النّار، وفي مصر القديمة كانت الصّلوات[34] أشبه بأناشيد دينيّة مدحيّة للإله، من ذلك هذا المثال الّذي يحتوي على صلاة تُرفع إلى الإله الشّمسيّ عند الشّروق: «المجد للإله حر آختي، خبري الّذي وُجد بذاته، كم هو جليل إشراقك في الأفق غامرًا الأرضيين بضيائك، وكلّ الآلهة تبهج لرؤيتك كملك لكلّ السّماوات، بينما تقبع الكوبرا الملكيّة على مفرقك، ويستقرّ تاجا الوجهين القبليّ والبحريّ على جبهتك، والإله تحوت ثابت على مقدّم سفينتك، موقعين صارم العقاب بأعدائك، وعند اقتراب موكبك يقدّم هؤلاء الّذين في العالم السّفليّ ليتطلّعوا إلى سناء بهائك»[35]، هذه الصّلاة تعبّر عن المشاعر الدّينيّة للمؤمن، وهي السمّة الّتي تميّز الدّولة القديمة، وحتّى نهاية الدّولة الوسطى؛ فهي تتغنّى بعظمة الإله وقوّته وبهائه ومجده، والصّلوات تختلف حسب مرتبة الآلهة؛ فهذه الصّلاة - مثلًا - خاصّة بالإله الكبير، في حين نجد صلوات أخرى خاصّة بالملوك أو الآلهة الأرضيّة (التماثيل)، ومن بين الصّلوات المشهورة: الأنشودة الّتي كانت تُتلى لإله النّيل حعبي في عيد الفيضان، والغزارة والتّنوع في الصلوات يخضعان للعامل الجغرافيّ؛ فكلّ مقاطعة لها إله أو مجموعة آلهة خاصّة بها، ويكون إله كلّ مدينة بمثابة مركز الكون وابن إله الشّمس، وقد أُلّفت التّرانيم الدّينيّة الّتي تُوحي بحضور الإله في كلّ زمان:

«سيدّ الأبديّة، الّذي لا ينقطع عن عبور الأعوام

الذي ليس لزمن حياته حدود.

33- تشرني (ياروسلاف): الدّيانة المصريّة، (سبق ذكره)، ص 152

34- إنّ الصّلوات المتعلّقة بالدّيانة المصريّة القديمة- المعتمدة في هذا البحث- مأخوذة من مراجع (وهذه المراجع جميعها لم تذكر فيها إحالة على أي مصدر أخذت منه)، وذلك راجع إلى طبيعة الدّيانة المصريّة في حد ذاتها؛ فلم توجد فيها كتابة مقدّسة مجمّعة في مؤلّف معيّن، والتّرانيم والأناشيد والأدعية والصّلوات وُجدت مفرّقة في المعابد والألواح الجداريّة، ويرجّح العلماء أنّ كتاب الموتى قد يكون هو الكتاب المقدّس في العصر الفرعونيّ.

35- تشرني (ياروسلاف)، (سبق ذكره)، ص 71

الهرم الذي يُعاوده الشّباب، والذي لا ينقطع عن عبور الفراغ اللّانهائيّ.

الإله المسّن الّذي دأب على جعل نفسه شابًا.

أمام العيون العديدة، وأمام الآذان الوفيرة»[36].

هذه الصّلوات تتغنّى بمجد الإله وعظمته التي تتجاوز الضّعف البشريّ، والمصريّ القديم استخدم صلوات شتّى - حسب الطّلب - فهو مرّة يرفع صلاته للإله الواحد، ومرّة أخرى يتلو صلاة لمجموعة من الآلهة، كقوله: «إنّني أعبد مين، وأعظّم حورس الّذي يرفع شامخًا ذراعيه، المجد لك مين في ظهوره ورياشه الشّاهقة ابن أوزيريس المولود من إيزيس المقدّسة، العظيم في محراب سنوت (Senut - Sanctuary)، القويّ في إبو (Ipu)، ربّ فقط (Koptos) حورس الرّافع ذراعه، سيدّ التّبجيل، ذو الكون الجليل عاهل الآلهة جميعًا، الغنّي بطبيعته عندما يقدم من أرض المادجاي (Medjau) المبجّل في النّوبة، أنت القادم من بلاد أوترت (Uteret)»[37]، إنّ صلوات من هذا النّوع ليست مقصورة على الدّيانة المصريّة وحدها؛ ففي الدّيانة الزّرادشتيّة - تحديدًا - في كتابهم المقدّس، وُضعت صلوات أكثر تفصيلًا ووضوحًا، من ذلك؛ قول زرادشت: «أعبدك يا آهورامازدا، وأمجّدك مع الحقّ والفكر الأسمى، والسيّادة التي تمنّيتها للإنسان التقّيّ، لعلّها تصير قاضي لطريق المطيع نحو مقام النّور»[38].

يصلّي زرادشت لآهورا معترفًا بمجد إلهه، ومعلنًا ضعفه (أعبدك)، وفي سياق آخر أكثر وضوحًا؛ يقول: «سبحانك يا آهورامازدا! لك التّرانيم، وإيّاك نعبد أيّها المستقيم الأفضل، أجل نقدم لك (التّرانيم) بفخر، ونصرّح لك بذلك»[39].

فالعبارات المستخدمة في الصّلوات الزّرادشتيّة أدقّ تعبيرًا عن الشّعور الدّينيّ للإله آهورا؛ «فالأفيستا تعرف صورًا نمطيّة للإعادة الميكانيكيّة للصّيغ الثّابتة، إنّها تتعلّق بصلوات مقتضبة لها قوّة سحريّة»[40]، وفي الكتاب الهنديّ المقدّس تظهر الصّلاة أكثر روحانيّة؛ إذ يُخاطب أرجونا ربّه: «روحي تنتابها الشّفقة والشّعور بالذّنب، هل أنا قادر على تنفيذ الواجب، أصلّي لك أم تخبرني اليقين بما هو أكثر نفعًا، فأنا تلميذهم،

36- ديماس (فرانسوا): آلهة مصر، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، 1998، ص 30

37- تشرني (ياروسلاف): الديانة المصرية، (سبق ذكره)، ص 71

38- عبد الرحمان (د. خليل): الأفيستا هايتي 50، (في حضرة آهورامازدا)، آية 4 (سبق ذكره)، ص 91

39- المرجع نفسه: هايتي 41 (الصلاة على آهورا الملك الحياة الجازي)، آية 1، ص 174

40- « L'Avesta connait la répétition mécanique des formules fixes, il s'agit des prières très brèves qui sont censées de tenir une puissance magique ». Paul Paupard: Dictionnaire des religions, p 1350.

نوّرني، أتوسّل إليك»[41]، كلّم أرجونا ربّه ليساعده في الوصول إلى الحقيقة؛ أي المعرفة الإلهيّة (أصلّي لك أم تُخبرني اليقين بما هو أكثر نفعًا).

تشترك هذه النّصوص في فكرة الخلاص؛ فالمصريّ القديم يصلّي لتنعم عليه الآلهة بالنّعم، وتمنحه الخلود في الحياة الأخرى، حياة ما بعد الموت، وفي الزّرادشتيّة: يدعو زرادشت آهورا ويُصرّح له بصلاته ليبعد عنه قوّة الشّر، وفي الهندوسيّة: يسعى العبد إلى إدراك الحقّ، كما ارتبطت الصّلاة في هذه الأديان بحركات وأفعال كالسّجود؛ ففي الطّقس اليوميّ في الدّيانة الفرعونيّة يدخل الملك - باعتباره الكاهن الأعلى - إلى المعبد، بعد أن يُتمّ التطهير الشّعائريّ (التّطهر في البحيرة، وكسر ختم مصنوع من الطّين...)، «فيخرّ ساجدًا أمام التّمثال، معلنًا أنّه دخل إلى السّماء (النّاووس) كي يتأمّل الإله»[42]، وفي وضع آخر؛ «يظهر له تمثال الإله حيث يُحيّي الكاهن الإله راكعًا على الأرض أمام تمثاله، ثمّ يرتّل بعد الصّلاة نشيدًا أو اثنين»[43].

فالمصريّ عرف الصّلاة الطّقسيّة بما يتخلّلها من ركوع وسجود، وصلاة أخرى ارتجاليّة (شبيهة بسفر المزامير في العهد القديم)؛ كالتّرانيم والأناشيد المنقوشة على قبور الموتى، وفي المعابد المحليّة والفردية، ففكرة الإله موجودة في هذه الأديان، وأفعال الصّلاة متشابهة، والمضامين متقاربة، وإن صيغت الصّلوات بأسلوب وصفيّ تحضر فيه كل صفات الجمال والكمال الّتي ترفع من شأن الممدوح؛ فالصّلاة عبّرت عن الوعي الدّينيّ في اللّحظات الأولى من بداية تشكّله، ولا يسعنا أن نتعسّف عليها؛ لأنّها محكومة باللّحظة التّاريخية والواقع الثّقافيّ الذي أنتجها، وهذه الأديان تشترك في طلب المنفعة الدّنيويّة (الأرضيّة) من الآلهة بالصّلاة، فالقطيع والثّور والماشية والبقرة مفردات موجودة بكثرة في الأدعية، وفي الدّيانة المصريّة عبدت الآلهة متجسّدة في صورة بقرة كالآلهة نوت، وقد رسمت البقرة السّماويّة «آحت منذ زمن حاتشبسوت وهي تحمل رع الطّفل بين قرنيها»[44]، وقد جاءت للوجود من تلقاء ذاتها، وهي الّتي أنجبت النّجوم والمعادن، «لقد كانت تستحوذ على الأبديّة الفضائيّة والزّمنيّة الّتي عبرّ عنها هذه المرّة بصور لا تستعير شيئًا من جماعة الآلهة الشّمسيّة:

«إليك التّمجيد

عاليًا كالسّماء

والتّبجيل

41- لاراواشاستري (د. شاكوانتا): باجافاد جيتا، الكتاب الهنديّ المقدّس، ترجمة: رعد عبد الجليل جواد، فصل الاتّحاد عبر الفلسفة، آية 7، دار الحوار، ط 1، 1993م، ص 30

42- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات، ج 1 (سبق ذكره)، ص 122

43- تشريني (ياروسلاف): الدّيانة المصريّة القديمة، (سبق ذكره)، ص 139

44- ديماس (فرانسوا): آلهة مصر، (سبق ذكره)، ص 122

عريضًا عرض الأرض

والتّهليل

في كلّ لحظات الزّمن !

إنّ تبجيل شخصك

يمتدّ حتّى الأخضر العظيم

إنّها سيدة الحياة الكونيّة

إنّها سيدة الصّحّة

والحياة رهن أوامرها»[45]

فالحيوان حاضر بقوّة حتّى في الأدبيات الدّينيّة القديمة (الكونفوشيوسيّة، التّوراة، ...إلخ)، ويرمز للخصب، وهذه الآلهة ذات الأشكال الحيوانيّة المختلفة سجد لها الإنسان؛ فالمصريّ القديم اعتقد أنّ الحيوان هو صورة الإله في الأرض، لكن النّار احتلّت - في الزّرادشتيّة - المكان الأوّل في العبادة، وعُظّمت لأنّها ترمز إلى الرّبّ الحكيم آهورامازدا، «وقد تجلّت النّار المقدّسة (آتار) في مظاهر مختلفة: النّار السّماويّة، نار الصّواعق، والنّار الّتي تمنح الجسد البشريّ الحياة والدّفء، والنّار الّتي كانوا يشعلونها في المعابد الزّرادشتيّة»[46]، وكانت توضع في معابد خاصّة في آنية نحاسيّة كبيرة في محراب، «ومن النّار المشتعلة أبدًا في معبد النّار كانوا يُشعلون نيران معابد المدن، ومن نيران معابد المدن كانوا يُشعلون نيران محاريب القرى، ومن هذه الأخيرة إلى محاريب المنازل»[47]، وكانت النّار توقد من خشب الصّندل الّذي تنبعث منه رائحة عطرة.

فالمؤمن الزّرادشتي يعتقد أنّ عرش الإله يقبع فوق الشّمس، لذلك يسجد للنّار، في حين أنّ الآلهة التي عبدها الهندوسي أقرب إلى الآلهة التي عبدها المصريّ، و«تؤكد أعمال السّبر الآثاريّ أنّ أسلاف الهندوس كانوا - منذ ذلك الزّمن - يسجدون للإله الّذي يجلس على العرش في وضعيّة اليوغا، محاطًا بالحيوانات من كلّ صوب، لكنّ هذا الإله هو نفسه الإله سيفا الّذي ما انفكّوا يسجدون له حتّى بعد ذلك بآلاف السّنين، وهم - منذئذ - يُجلّون الحيوانات المنزليّة والبريّة؛ فعبدوا العنز الجبليّ، والجاموس، والثّور، وحمار الوحش،

45- ديماس (فرانسوا): آلهة مصر، (سبق ذكره)، ص 123

46- ميغوليفسكي (أ.س): أسرار الآلهة والدّيانات، (سبق ذكره)، ص 77

47- المرجع نفسه، ص 77

والنّمر، والفيل، ووحيد القرن، ويعبدون في الهند - الآن - البقر والثّعابين والقردة»[48]، فالمؤمن الهندوسيّ يتغنّى بالفيدات، ويؤمن بفيشنو، ويسجد للبقر، وقد جاء في فصل رؤية شكل الكون من الكتاب الهنديّ المقدّس قول أرجونا: «أنت فايُو إله الرّيح، وياما إله الموت وإله النّار، وفارونا إله البحر، وأنت القمر، وبراجاباتي الجدّ الأكبر للجميع، فالسّجود السّجود لك آلاف المرّات، ومرّة أخرى وأخرى السّجود، السّجود لك»[49].

إنّ المعتقد الهندوسيّ هو نفسه عند المصريّين الّذين جعلوا لكلّ عنصر من عناصر الطّبيعة إلهًا، وهو نفسه عند الزّرادشتيّين لكن بدرجة أقلّ، وقد جاء في الأفيستا قول زرادشت: «التفتّ إلى أعمالي عن طريق قاهومانو، وعبادتي أوجّهها لك يا مازدا، وكلمات تسبيحي أوجهها لك يا آشا، امنحاني بركاتكما الأبديّة يا أميرتات وهورڤيتات»[50].

فهذه الآلهة - في تنوّعها وتعدّد وظائفها - لا تشكّل لدى المؤمن سوى تلك الصّورة الّتي يقتنع من خلالها بإله علويّ، وسنوضّح - من خلال الجدول الإحصائيّ الآتي - أهمّ أصناف الآلهة الّتي عبدها المصريّون القدماء والهندوس والزّرادشتيون؛ لنبيّن التّقارب الحاصل فيها:

الدّيانة	أهمّ الآلهة المتمثّلة في قوى الطّبيعة	أهمّ الآلهة المتجسّدة في أشكال حيوانيّة	أهمّ الآلهة الرّئيسة
الدّيانة المصريّة*	- رع: إله متجسّد في قرص أشعة الشّمس. - الإله حا: سيد الغرب فوق رأسه رمز الصحراء. - الإله فنسُو بعلامة القمر فوق رأسه.	- الإله رع برأس صقر. - الإله آمون برأس كبش. - الآلهة سخمت برأس لبؤة. - الإله خبري يعلو رأسه جعران. - الإله باست مجسّد في تمثال قطّ. - الإله سبك: في شكل تمساح. - الإله أبوفيس: في شكل ثعبان أو الكوبرا وهي تحيط بتاج الملوك.	- رع - بتاح - إيزيس - أوزيريس

48- ميغوليفسكي (أ.س): أسرار الآلهة والدّيانات، (سبق ذكره)، ص 104

49- لاراواشاستري (د. شاكوانتا): الكتاب الهنديّ المقدّس، فصل رؤية شكل الكون، آية 39، (سبق ذكره)، ص 102

50- عبدالرّحمن (د.خليل): الأفيستا هايتي 33 (دعوة زرادشت)، آية 8، (سبق ذكره)، ص 71

*- الدّيانة المصريّة: للتّوسع أكثر في معرفة الآلهة وصفاتهم؛ أنظر كتاب تشريني (ياروسلاف) بعنوان «الدّيانة المصريّة القديمة»، من ص 223 إلى ص 238

الدّيانة	أهمّ الآلهة الطّبيعيّة	أهمّ الآلهة ذات الرّموز الحيوانيّة	أهمّ الآلهة الرّئيسة
الدّيانة الهندوسيّة	- آلهة الشّمس: سوريا. - آلهة الفجر: أونتاس. - آلهة عتمة اللّيل: راتي. - الكهوف المظلمة: رمز لإله الموت ياما.	- الإله الفيل ابن سيفا. - الإله براهما، ويرمز له بإوزّة بيضاء. - فيشنو: يرمز له بسلحفاة / دبّ/ سمكة/ أسد. - الإله شيفا: يرمز له بثعبان.	- براهما: خالق العالم. - سيفا: إله الخلق والتّدمير. - الإله فشنو: حافظ العالم.
الدّيانة	أهمّ الآلهة الطّبيعيّة		أهمّ الآلهة الرّئيسة
الدّيانة الزّرادشتيّة*	- آرمايتي: حامية الأرض. - هورفيتات: روح الكمال ومسؤول عن المياه. - أميرداد: موكّل على النّباتات. - ساقا نكهي: الإله حامي القطيع. - داهيوما: الإله حامي البلدان. - نمانيا: الإله الّذي يحمي المواقد المنزليّة.		- آهورامازا: رمز الرّب الحكيم والرّوح الخيّرة. - أهريمان إله الشّرّ.

من خلال دراستنا هذا الجدول الإحصائيّ؛ يتبيّن لنا أنّ عالم الإلهيات في هذه الدّيانات هو- تقريبًا - عالم واحد؛ «فقد أثبت الخيال الشّعبيّ ألوف الآلهة(...)، فغدت قوى الطّبيعة والحيوانات النّافعة والضّارة، وأشباح الموتى، ومياه الأنهار، والرّيح، والضّياء، آلهة للشّعب»[51].

وكانت المعابد الفرعونيّة ممتلئة بشتّى أنواع الحيوانات البرّيّة المحنّطة، تعطي بعدًا روحيًّا جماليًّا مرتبطًا بالشّكل الهرميّ؛ فهذه الآلهة المعبودة إمّا أن تتخذّ شكل حيوان أو تتمثّل في عنصر من عناصر الطّبيعة، وقد تجلّى ذلك بوضوح - خاصّة - في العصور الأولى (عهد الدّولة القديمة في الدّيانة المصريّة، وعصر الخارابا والآريّون، وامتزاج أقوال آهورامازدا بديانة المجوس للفرس القدامى) لبداية تشكّل الوعي الدّينيّ، ثمّ - شيئًا فشيئًا - بدأت تظهر المعبودات ذات الأشكال الآدميّة، وكانت «الصّلوات الموجّهة إلى الأرباب أو التّرنيمات والأناشيد الدّينيّة، كما يُطلق عليها بين المتعبّد والآلهة، وتُضمّن في معظمها وصفًا دقيقًا نسبيًّا للمظهر الخارجيّ الّذي تتجلّى فيه المعبودات في تماثيلها ورسومها، وتيجانها، وصولجاناتها الإلهيّة»[52].

*- الدّيانة الزرادشتيّة: للتّوسع أكثر في معرفة الآلهة الزّرادشتيّة وأهمّ وظائفها؛ أنظر في هامش الأفيستا (الكتاب المقدّس للدّيانة الزّرادشتيّة).

51- لوبون (غوستاف): حياة الحقائق، ترجمة: عادل زعيتر، دار بيبليون، باريس، ط 1، 2005م، ص 41

52- سعد الله (حسن): من أسرار الفراعنة، (د.ت)، ص 50

أمّا بالنّسبة إلى الأسلوب أو الخطاب الّذي يوجّه الصّلاة من الذّات المتعبّدة المتلفظّة إلى ذات كونيّة (الآلهة)؛ فإنّ الأنا غائبة - تمامًا - عن التّرانيم الفرعونيّة، ولا ينقص ذلك من قيمة المشاعر الدّينيّة للشخص المصلّي، أمّا في الصّلاة الهندوسيّة والزّراديشتيّة؛ فالأنا (أرجونا، زرادشت، ...) حاضرة بكثافة، وهذا الحضور يوحي بالجانب الرّوحيّ الباطنيّ للصّلاة في هاتين الدّيانتين، والذّات المتلفّظة لا تتطلّب الخير والبركة فقط؛ بل نجدها تكثر من الأسئلة للآلهة، معلّمة بذلك الأسلوب والحكمة للبشر؛ فالخطاب الدّينيّ المضمر في الكتاب الهندوسيّ المقدّس محمّل بالمقاطع الحواريّة (بين أرجونا وربّه)، ويبدو أرجونا التّلميذ، والله هو المعلّم، ويسعى التّلميذ لبلوغ الحقيقة من خلال نبذ العالم؛ فهو «يدمّر ذاته الدّنيا كي يفسح المجال، ويمهّد الطّريق لذاته الرّوحيّة العليا»[53]، كما وردت إشارات في ترانيم زرادشت تتعلّق بالأخلاق والاستقامة، «فالصّلاة: هي الاستقامة الفضلى، إنّها الخير لهذا (الإنسان) إذا اتّجه نحو الاستقامة الفضلى حيث الصّدق»[54].

فالصّلاة - بما هي تفان في العبادة - تحقّق الاستقامة في الأخلاق، والصّدق، وتخلّص المؤمن من روح الشّرير (الشّيطان)، وفي الهندوسيّة: تُطلب هذه الاستقامة بالزّهد عبر تدريب النّفس وترويض الجسد، وذلك بقول أرجونا: «والهاجر للأنانيّة، القوّة، الكبرياء، الهوى، الغضب، الملكيّة، والذّاتيانيّة، ومن هو هادئ، فإنّه مناسب للتّوحّد مع براهمان»[55].

فخروج الذّات من الكبرياء موصل للنرفانا، وفي مصر الفرعونيّة: يتوجّب على العبد أن يعيش مستقيمًا، حتّى لا يعاقبه الإله الدّيان في المحاكمة الّتي يسأل فيها القاضي الأعظم الميّت، بقوله: «هل أعطيت مجدًا للآلهة»[56]، وفي مشهد آخر: «يتقدّم حوروس (...)، ويخطو به نحو منصّة الرّئيس الّذي يُصدر الأمر بخلع قلبه الرّوحانيّ، فيتسلّمه أوتوبيس، ويضعه في إحدى الكفّتين مقابل ريشة الحقّ في الكفّة الأخرى»[57]، فتمجيد الآلهة - بما هو صلاة - مخرج العبد من الخطأ إلى الاستقامة، وقد جاء في كتاب حسن سعد الله قوله: «وكانت الآلهة تمجّد لأحد أسباب ثلاثة؛ إمّا لفائدة ترجى، أو خوف من شرّ يُراد اتّقاؤه، أو الإعجاب بعظمة فيهم لا يمكن إدراكها»[58].

53- سعيد (حبيب): أديان العالم، (سبق ذكره)، ص 78

54- عبدالرّحمن (د.خليل): الأفيستا: هايتي 8 (تقديم قربان اللحم بشكل خاصّ)، آية 1، (سبق ذكره)، ص 127

55- لاراواشاستري (د. شاكوانتا): الكتاب الهنديّ المقدّس، فصل التّكرّس عبر التّحرّر والزّهد، آية 53، (سبق ذكره)، ص 140

56- سعيد (حبيب): أديان العالم، (سبق ذكره)، ص 42

57- المرجع نفسه، ص 43

58- سعد الله (حسن): من أسرار الفراعنة، (سبق ذكره)، ص 51

لا يقتصر فعل الصّلاة على دعاء يُقال أو حركة ركوع أو سجود فقط؛ إنّما هي - أساسًا - الأخلاق النّابعة من الباطن التي تطهّر القلب والرّوح، وقد ذهب مرسال موس في كتابه إلى أنّ الصّلاة «تستلزم - دومًا - قوّة وبذل طاقة جسديّة وأخلاقيّة من أجل إنتاج بعض الأعمال»[59]، فالصّلاة منفتحة على طقوس تعبديّة أخرى؛ كطقس التّكريس والطّقس الاحتفاليّ بالأعياد الدّينيّة، والطّقوس الجنائزيّة، وطقس فتح الفم، وطقس بناء المعبد لدى الفراعنة، لكن يبقى طقس تقديم القربان هو الأهمّ، حتّى إن تحوّل من فعل طقسيّ إلى رمزيّ؛ ففي الهندوسيّة تضحية الله خلق وتضحية الإنسان فعل، وهذا التّرميز والتّجريد وصلوا إليه بالقربان في المسيحيّة.

تعدّ الصّلاة مفتاح جميع الطّقوس والممارسات الشّعائريّة الّتي تغذّي العالم الرّوحيّ للمتعبّد؛ فالإنسان كائن المعنى بامتياز؛ لأنّه أدرك أنّ «العقل الكونيّ موجود في كلّ شيء، سواء أكان هذا الشّيء حيًّا أم غير حيّ، إنّه ماهيّة واحدة تخترق الكون كلّه، وتلد كلّ شيء في هذا العالم وتوجّهه»[60]، وفي الكتاب الهندي المقدّس تتقاطع الصّلاة مع الدّعوة للتّزهّد والتأمّل، للاتّحاد والتوحّد بالذّات الإلهيّة من أجل الوصول إلى الكمال والسّعادة الرّوحيّة، وقد جاء فيه قوله: «ركّز ذهنك بي، وتكرّس لي، وقدّم تضحياتك لي، واسجد لي، ودع روحك تتوحدّ بي هدفًا لها، وعندها ستأتي إليّ»[61]؛ فالصّلاة الباطنيّة: تأمّل ومحبّة وتفكير في عظمة الإله؛ أي التّساؤل لمعرفة سرّ الوجود، ومثل هذه الصّلاة تتجاوز الجانب الطّقسيّ من العبادة لتوغل في الوجدان، لتحقيق الصّفاء الرّوحيّ الموصل للنرفانا[62]*.

وتتحوّل الصّلاة إلى صلاة مساريّة (prière ititiatique) يسعى من خلالها المتعبّد إلى التّوحّد بالذّات الإلهيّة، وهذه الميزة تجعل الصّلاة الهندوسيّة ذات صبغة عرفانيّة أكثر روحانيّة من الصّلاة الفرعونية والزرادشتيّة، وحتّى فصول الكتاب الهنديّ المقدّس يكثر فيها استعمال كلمة اتّحاد (كالاتّحاد عبر التّكرّس للعبادة، والاتّحاد عبر المعرفة، والاتّحاد عبر الإنكار الزّهديّ، والاتّحاد عبر التأمّل، ....إلخ).

وفي الديانة المصريّة لا يتحقّق الاتّحاد بهذه الطّريقة الصّوفيّة المعذّبة للنّفس؛ فالكمال الرّوحيّ عندهم يتحقّق بتمجيد الآلهة في الدّنيا، لتتمكّن الرّوح (الكا) من الاتّحاد بالآلهة بعد الموت، أمّا الزّرادشتيّة فنجدها تنظر للبعد الرّوحيّ من خلال استعمال العقل (العقل الخيّر، النيّر، ...إلخ)؛ فالسّعادة الرّوحانيّة تتحقّق

59- «Elle implique toujours un effort, une dépense d'énergie physique et morale en vue de produire certains e - fets.» Mauss (Marcel): La prière, édition Temporaire du 3 octobre 2002 réalisée à Chicoutimi, Québec, p. 40.

60- بنوا (لوك): المذهب الباطنيّ، ترجمة: نهاد خيّاطة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط 1، 1998م، ص 85

61- لاراواشاستري (د. شاكوانتا): الكتاب الهنديّ المقدّس، فصل الاتّحاد عبر العلوم والأسرار الملكيّة، آية 34، (سبق ذكره)، ص 87

62*- النّرفانا: "تعني: نرفانا حرفيًا [الانفجار]، وهنا تعني: الحلول الكامل للرّوح في الرّوح العليا– وذلك حسب رأي المدرسة الفيديّة- وفي براداراياكوبانيشاد كمثل حفنة ملح ترمى في البحر فتذوب في المياه الّتي جاءت منها، ولا يمكن أن تنفصل عنها، كذلك تذوب الروح في الرّوح العليا"، د شاكوانتا: الكتاب الهنديّ المقدّس، فصل الاتّحاد عبر العلوم والأسرار الملكيّة، ص 39

بالسيطرة على الدّيفاس، وهزمه من خلال العمل ببركات وترانيم الرّبّ الحكيم، وبفعل التّطهير الخيّر الصّالح. الصّلاة مرتبطة بعناصر نفسيّة مشتركة بين جميع البشر؛ "فالحبّ والحقد والحرص والحسد أمور ظلّت كما كانت عليه في فجر الإنسانيّة، وهي - وإن أمكن ضبطها أكثر من قبل على ما يُحتمل - باقية على الدّوام"[63].

إنّ المشاعر الدّينيّة والعاطفيّة تتفاعل لتتصوّر آلهة وتنتج المعتقدات برموزها وشعائرها «وخلود الآلهة في التّاريخ يكفي لإثباته ملاءمة هذه الآلهة احتياجات النّفس الثّابتة، وإذ حدث أن البشر غيّروا آلهتهم في بعض الأحيان؛ فإنّهم لم يستغنوا عنها قط، والنّاس شيّدوا القصور للآلهة قبل أن يُقيموها للملوك»[64].

إذا كانت الآلهة من إنتاج الوجدان الجمعيّ والصّلوات والبركات المرفوعة إليها متقاربة متشابهة بين هذه الأديان (المصريّة القديمة، الهندوسيّة، الزّرادشتيّة)، فهل ذلك يعني أنّ هذه النّصوص أصليّة وذات مصدر إلهيّ واحد فحافظت - بذلك - على نقائها وصفائها الأوّليّ؟ أم هي متغيّرة متحوّلة؟

من الثّابت تاريخيًا: أنّ الأديان في تطوّر مستمرّ؛ فهي خاضعة لسيرورة الزّمن، والاختلافات الّتي وُجدت في نصوص الصّلاة لا تؤثّر في ذلك الإرث المشترك والتّرانيم، والأدعية لم تؤلّف في لحظة زمنيّة واحدة، فلكلّ حقبة كهونتها ولاهوتها، والنّصوص المجمّعة في أوراق البرديّ في عصر الدّولة المصريّة القديمة ليست هي نفسها المدوّنة في عصر الدّولة الحديثة، وهذا لا ينفي عنها أصالتها؛ لأنّها كتبت لحظة تأليفها، ووُثّقت في المعابد، وحُفظت في بيت الحياة، والاختلاف في نوعيّة النّصوص مردّه روح العصر والقدرة الإبداعيّة لرجال الدّين على صياغة الأناشيد، أمّا فيما يخصّ الاختلاف أو التّناقض الّذي حوته نصوص الدّيانة الهنديّة؛ فهو خاضع لعوامل أخرى: «فمنذ أواسط الألف الثّاني قبل الميلاد، أخذت القبائل البدوية الآريّة تتسرّب إلى شمال غربي هندوستان، وحمل هؤلاء معهم إلى الهند دياناتهم وقوانينهم، وألّفت أناشيدهم وصلواتهم وخرافاتهم ومعارفهم المقدّسة - على وجه العموم - مجموعات كبيرة الحجم تدعى الفيدات؛ وهي كتب مقدّسة، وقد دُوّنت الفيدات على امتداد زمنيّ لا يقلّ عن الألف عام، مثلها في هذا مثل التوراة، ويمكننا أن نعتقد أنّ تلك العمليّة قد اكتملت في زمن بوذا في القرنين السّادس والخامس قبل الميلاد»[65]، هذه الأحداث التّاريخية تسبّبت في الامتزاج الماثل في نصوص الصّلاة؛ فالإله الفيديّ يطلب التّضحية القربانيّة والصّلاة واليوغا في آن واحد، حتّى أضحت الدّيانة مجموعة من المعتقدات الفلسفيّة. وقد جاء في معجم الأديان قوله: «إنّ الدّيانة الهندوسيّة تمتلك حقائق كلّ الصّلوات الّتي نعرفها في باقي الدّيانات:

63- لوبون (غوستاف): حياة الحقائق، (سبق ذكره)، ص 35

64- المرجع نفسه، ص 24

65- ميغوليفسكي (أ.س): أسرار الآلهة والدّيانات، ص 104

التّعويذة السّحريّة، والطّلب، والتّوسّل، والشّفاعة، والإطراء، وخاصّة العبادة»[66]، أمّا فيما يخصّ التّرانيم الزّرادشتيّة، أو ما يسمّى (الأفيستا)؛ فقد «تمّ تدوينه - على الأرجح - قبل القرن الخامس الميلاديّ، وإن كانت مادّته قد تمتدّ إلى ما قبل غزو الإسكندر لفارس عام ثلاث مائة وثلاثين قبل الميلاد، وكان أن فُقدت جميع نسخه، وفُقدت معها تفاسيره والمؤلّفات الّتي كانت تشتمل على شيء منه، ثمّ بدأ ملوك فارس في تدوينه منذ القرن الأول الميلاديّ حتّى القرن الخامس (...)، فكانت إعادة التّدوين من الذّاكرة، ومن الثّقافات المحيطة، ومن الأساطير الشّائعة»[67].

إنّ التّعديل الّذي خضعت له هذه النّصوص المقدّسة لا يغيّر شيئًا من مكانتها لدى مؤمنيها؛ لأنّ المجتمع هو الذي ينتج الظواهر الدّينيّة ويستهلكها، ولا يمكننا الحديث عن كتابات مقدّسة دون صلوات وأدعية، وذلك يتعلّق بالآلهة الخالقة والآلهة المخلّصة من قوى الظّلام والشّرّ؛ «لأنّ قوانين سلوك الجزئيّات الأولى هي نفسها الموجودة على الأرض، وغنيّ عن البيان أنّ هذا ينسحب على القوانين كلّها، على وجه العموم»[68].

5. التّوحيد والإيمان:

أ. التّوحيد:

آمنت شعوب الأديان غير الكتابيّة بعديد الآلهة، منها: المصوّرة في هيئة تماثيل، وأخرى مجرّدة، إلّا أنّها حظيت بمكانة كبيرة، فعبدها الشعب وبثّت فيه الأمل والطمأنينة، واعتقد أنّها هي المسيّرة لنظام الكون؛ فقدّسها بالصّلوات وقدّم لها القرابين، وألّف لها الأناشيد والتّرانيم الدّينيّة، لأنّها هي خالقة الكون، وجاءت الأساطير المتعلّقة بنشأة الكون متشابهة في قصصها، وتبعًا لذلك؛ تشابهت العبادات الموجّهة إليها، ونشأت الآلهة الأرضيّة (ولدت من الآلهة السّماويّة)، ويمكن الحديث - انطلاقًا من هذه المسلّمات - عن جذور التّوحيد في هذه الأديان، ويمكن أن نستخلصها من نصوص الصّلوات الموجّهة - أصلًا - إلى آلهة سماويّة ذات طبيعة نورانيّة، «فديانة الشّمس كانت الخطوة السّابقة لخطوة التّوحيد الصّحيح؛ لأنّها أكبر ما تقع عليه العين، وتعلّل به الخليقة والحياة، فإذا دخلت هي - أيضًا - في عداد المعلولات، فقد أصبح الكون - كلّه - في حاجة إلى خالق موجد للأرض والسّماء والكواكب والأقمار»[69]، وقد عرفت مصر الفرعونيّة آلهة محلّيّة في كلّ مقاطعة: (الدّلتا، الصّعيد، مندس، هيليوبوليس، ...إلخ)، لها لاهوتها وكهنوتها الخاصّ بها، فضلًا عن

66- «L'indouisme possède toutes les variétés de prière que nous connaissons dans d'autres religions: l'incantation magique, la requête, la supplication, l'intercession, la louange et surtout l'adoration», (Poupard) Paul: Dictionnaire des religions, p 1359.

67- سعفان (د. كامل): معتقدات آسيويّة، دار النّدى، ط 1، 1999، (سبق ذكره)، ص 112

68- ميغوليفسكي (أ.س.): أسرار الآلهة والدّيانات، (سبق ذكره)، ص 102

69- محمود العقّاد (عباس): الله، (سبق ذكره)، ص 19

اعترافها بالملك الّذي يُعدّ ابن رع، وفي عصر الدّولة القديمة كانت الآلهة كثيرة، فنُسبت إلى كلّ واحد منها وظيفة يختصّ بها، وهو فرع من أصل، أو هو تجسيد للآلهة العظام، كما وقع للإله تحوت مثلًا، «فقالوا: إنّه قلب رع، ولسان تانتن، وحنجرة ذلك الّذي اسمه سرّ خفيّ، وهذا يعني؛ أنّه تصوّر العالم كما تصوّره رع، واستدعاه للوجود بالكلمة كما استدعاه بتاح، وبالنّظام المحدّد كآمون»[70].

لقد آمن المصريّ بإله يسكن في الأفق سيّدًا على جميع الآلهة الأرضيّة الّتي هي تجسيد له، وفي كلّ حقبة تبزغ مجموعة جديدة من الآلهة، هي - أيضًا - تابعة للإله السّماويّ، وهذا الاعتقاد يدعم فكرة التّوحيد الّتي لا يمكن أن يتّصف بها إله واحد أزليّ، مثل الصّلاة التي مُجّد بها آمون معبود مدينة طيبة:

«ذاك الّذي بدأت صيرورته أوّل مرّة

آمون الّذي أنجب نفسه في البدء دون أن يعرف سرّه

لم يوجد إله قبله

ولم يكن يوجد إله آخر معه ليحدّثه عن شكله

ولم تكن له أمّ لتضع اسمه

ولم يكن له أب نسله، وقال: «هذا هو ذا أنا»!

ذاك الّذي قام بنفسه بصنع بيضته

القويّ الغامض الميلاد، والّذي خلق جماله

الإله الإلهيّ الّذي جاء للوجود من تلقاء ذاته»[71]

فالخيال الدّينيّ في مصر الفرعونيّة أحاط الآلهة بجملة مميّزات وصفات لا يمكن أن تخرج عنها، وكل آلهة مشهورة هي - بالضّرورة - ظلّ ذلك الإله السّماويّ الخفيّ عن الأبصار، فيُحمّل صفاته، ويكون واسطة تحقّق تواصل العبادة بين الشّعب والآلهة العلويّة، وهذا التّصوّر هو بمثابة القالب الّذي خصّصت له كلّ آلهة الدّولة القديمة «فاسم الإله مجسّد في إله مجسّد آخر؛ هو - بالنّتيجة - استمرار للنّظام الكونيّ والاجتماعيّ، وضمان له»[72].

70- ديماس (فرانسوا): آلهة مصر الفرعونيّة، (سبق ذكره)، ص 85

71- المرجع نفسه، ص 159

72- إلياد (مارسيا): تاريخ المعتقدات والأفكار الدّينيّة، ج 1، (سبق ذكره)، ص 114

وفي عصر الدّولة الحديثة وقع تحوّل مفاجئ في اللّاهوت الفرعونيّ مع الملك أمنتحوب الرّابع المنحدر من الأسرة الثّامنة عشرة، فقام بإصلاح دينيّ شامل؛ فغيّر اسمه إلى أخناتون (المرضي لآتون)، واتّخذ عاصمة جديدة لحكمه اسمها أخيناتون (أي أفق آتون)، وبذلك كرّس عبادة ربّ الشّمس الأوحد «وفي المحلّ الأولّ النّور الإلهيّ»[73]، وأُلِّفت التّرانيم الّتي تتغنّى بمجد هذا الإله الأوحد «وكان الكهنة يردّدون الأناشيد الرّائعة في الهياكل والمعابد، مثل قولهم:

ما أعظم أعمالك أيّها الإله

إنّها خافية على جميع البشر

أيّها الإله الواحد الّذي لا إله سواه

(...) فعندما تشرق الشّمس تحيا الخلائق

وعندما تغيب تموت

لأنّك أنت مصدر الحياة»[74].

مثّل التّوحيد الآتونيّ في عهد أخناتون الحقيقية الإلهيّة الواحدة بجلاء ووضوح في كامل تاريخ مصر الفرعونيّة، فهل أراد أن يتخلّص من التّوحيد غير المباشر من خلال عبادة الآلهة الأخرى الّتي تجسّد في مختلف وجوهها قرص الشّمس رع؟ أم أنه تأثّر بالفكر التّوحيديّ اليهوديّ - خاصّة - أنّ النّبيّ يوسف عاش فترة في مصر؟

إنّ التّوحيد في هذه الأديان الثلاثة غير شفّاف؛ لأنّ الآلهة الثّانويّة لم تفقد مكانتها إلّا في مناسبات قليلة جدًا؛ فالمؤمن الهندوسيّ آمن بالآلهة والحيوانات وبعض مظاهر الطّبيعة في آن، وعدّها صادرة عن الإله العلويّ الأزليّ، وهذه نقطة الالتقاء بين جميع الأديان، وفي الدّيانة الزّرادشتيّة: صرّح زرادشت بقداسة الآلهة الّتي خلقها آهورا لمواجهة قوى الشّرّ، وفي الكتاب الهندوسيّ: يتحدّث أرجونا عن التوحيد قائلًا: «أيّها الجبّار: لِمَ لَمْ يسجدوا لك وأنت الخالق الأوّل والأعظم حتى من براهمان؟ أيّها المطلق يا إله الآلهة المقيم في الكون، وأنت الأزليّ والوجود والعدم وما وراء ذلك (...)، أنت فايو إله الرّيح، وياما إله الموت، وإله النّار، وفارونا إله البحر، وأنت القمر براجاباتي الجدّ الأكبر للجميع، فالسّجود السّجود لك آلاف المرّات،

73- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات والأفكار الدّينيّة، ج 1، (سبق ذكره)، ص 135

74- سعيد (حبيب): أديان العالم، (سبق ذكره)، ص 45

ومرّة أخرى وأخرى السّجود، السّجود لك»[75]، فالتوحيد الهندوسيّ يتحقّق من خلال هذه الآلهة؛ الّتي هي بمثابة قواعد عرش الإله الأزليّ، وهذه الفكرة ثابتة لم تتطوّر إلى فكرة الإله الواحد المجرّد كما حصل مع أخناتون، وهي الميزة التي ميّزت الدّيانة الفرعونيّة عن غيرها من الدّيانات، أمّا من النّاحية الرّوحيّة؛ فالتّوحيد الزّرادشتيّ أكثر وضوحًا وتماسكًا من التّوحيد المصريّ الّذي بلغ الذّروة في عهد آخناتون، ثمّ تهاوى بسرعة، وفي الأفيستا توجد صلوات وترانيم كثيرة تؤكّد ألوهية آهورامازدا ومكانة النّبيّ زرادشت، باعتباره كاهنًا أنموذجيًّا، إضافة إلى أهميّة الآلهة الأخرى الّتي تُعدّ في دائرة الرّبّ الحكيم، وقد جاء في قول زرادشت: «اُنهض لأجلي يا آهورا، ومن خلال آرمايتي امنحني القوّة من خلال الرّوح الأقوى، امنحني الشدّة يا مازدا، ومن خلال آشا امنحني الشجاعة الجبّارة، ومن خلال ڤاهومانو امنحني المكافأة»[76].

المؤمن الزّرادشتيّ يؤمن بهذه الآلهة كونها أقانيم الرّبّ الّتي يستطيع من خلالها أن يحصل على القوّة والشّجاعة الرّوحيّة لقهر الدّيفاس، والوصول إلى الخير المطلق من خلال وساطة (من خلال الرّوح الأقوى، من خلال آرمايتي، من خلال ڤاهومانو، ...إلخ)، وبهذه الوسائط يصل إلى الوحدانيّة، ذلك أنّ الآلهة الفرعيّة هي الوسيطة في الدّيانات الثّلاث، فمن خلالها يُحاكي المؤمن آلهته بالعبادة الطّقسيّة والرّوحيّة (القلبيّة/ الباطنيّة)، و«إذا كان مفهوم الله الخالق وحيد الشّكل ولم ينله تطوّر كبير؛ فإنّ طبيعة الآلهة الثّانويّين أكثر من ذلك تعقيدًا، بما لا يقاس، وهذه الكائنات الإلهيّة يمكن أن ترتدي لدى الشّعوب مظاهر مختلفة»[77]، كما عُدّ التّوحّد بالذّات الإلهيّة مبرّرًا للوصول إلى المقام النّوريّ في فلسفة النّرفانا والتّصوّف، وفي الحضارة المصريّة: عدّ الاتّحاد بالآلهة من خلال الرّوح (الكا) الّتي تبقى حيّة (هذه السّمة تجعل الدّيانة المصريّة القديمة من الدّيانات الإحيائيّة الّتي تؤمن ببقاء الرّوح البشريّة حيّة بعد الموت، وتوجّه «للإبحار الباطنيّ في الأزل»[78].

ولمّا كانت الصّلاة فعلًا طقوسيًّا ساميًا فإنّ ممارستها تربط بين العالم الطّبيعيّ وعالم ما فوق طبيعيّ (الظّواهر السّماويّة)، فالإنسان في هذه الأديان أحبّ الآلهة الّتي أغرته بطاقتها النّازلة عبر الدّفء، وأدهشه نور الإله الشّمسيّ في النّهار، وانعكاسه على ضوء القمر والنّجوم في اللّيل، وهذه المظاهر تؤكّد عالميّة

75- لاراواشاستري (د. شاكوانتا): الكتاب الهنديّ المقدّس، فصل رؤية شكل الكون، آية 39، (سبق ذكره)، ص 102

76- عبد الرّحمن (د. خليل): الأفيستا، هايتي 33، (دعوة زرادشت) الآية 12، (سبق ذكره)، ص 71

77- فرويلش (جـ.س): ديانات الأرواح الوثنيّة، (سبق ذكره)، ص ص 108- 109

78- ميغوليفسكي (أ.س): أسرار الآلهة والدّيانات، (سبق ذكره)، ص 18

الآلهة الشّمسيّة في العالم القديم، وهي موجودة - أيضًا - عند الهنود الحمر، وقد ذكرها شارل ليبنهوم[79]؛ فالزّرادشتيون سجدوا للنّار، والهندوس سجدوا للآلهة بتجليّاتها النّاريّة (إله النّار آغني، كهنة ملكيّون من سلالة الشّمس، ...إلخ)، فسعى العبد إلى التّقرّب منها؛ لأنّه أدرك أنّه متى امتلك النّور بلغ الحقيقة والكمال، وحصل على الخلود، وبتلك الطّريقة صارت الآلهة موحّدة.

ب. الإيمان:

تبلورت المفاهيم الدّينيّة الأساسيّة لدى الشّعوب من خلال توصّلها إلى التّفكير في عالم السّماء ونسج تصوّرات وأساطير، تقرّب صورة الإله الخفيّ الّذي عجزت العيون عن إدراكه بالبصر، فحاولت إخضاعه بالتّمائم والتّعاويذ؛ أي بقوّة الكلمة، فأعطى الإنسان - بذلك - قيمة كبرى لوجوده الرّوحيّ لا بالعقل؛ بل بسلطة التّوحيد (التّفكير في جوهر الإله)، ومملكة الإيمان (في القلب)، باعتبارهما أصل الدّين.

عرفت شعوب كلّ من الدّيانة المصريّة القديمة، والهندوسيّة، والزّرادشتيّة، مشاعر إيمانيّة نتيجة تديّنها وخضوعها لفكرة الإله الأوحد، إلّا أنّ طرائق التّعبير عنها اختلفت: فالمصريّ القديم لم يعرف كلمة إيمان، «وكان مقدّم الصّلاة لرع يهتف: «هل يمكن أن تمنحني من الـ(مات) في قلبي»[80]، فالحقيقة مات: هي الإيمان؛ لذلك توسّل إلى إلهه ليبثّ فيه الإيمان (النّور)، ويُبعد عنه الظّلمات والظّلال، فالإيمان يكمن في القلب، ويتحقّق بالصّلاة الّتي تتجه إلى توحيد الخالق؛ فهي في منطقة وسطى بين الخالق والمخلوق، أو هي التّجلّي الظّاهريّ للإيمان، وبها يكتمل فعل التّوحيد، وفي الهندوسيّة تُذكر لفظة الإيمان في سياقات مختلفة مرتبطة بالتّقوى والزّهد والتّنسّك «...أصلّي لك أم تُخبرني اليقين...»[81]، «....يمارسون العديد من الطّقوس الّتي تقود إلى الفرح والقوّة[82]، «من هو متكرّس مترع بالتّقوى»[83]، ذلك الزّهد يمارسه ذوو الإيمان العلويّ...»[84]، ويؤمن الهندوسيّ بالفعل الّذي يُحدثه الإيمان في نفسه وقلبه، لذلك؛ يبدو ساعيًا إلى تقويّة إيمانه بالزّهد والتّكريس، لا بالصّلاة الظّاهريّة وحدها؛ فصلاة الباطن هي السّبيل إلى بلوغ اليقين (الإيمان)

79- ليبنهوم (شارل): "التحية لواكان تانكا الأب الكبير المعبود بشدّة
أنت الإله شمس والإله سماء"

Salut, Wakan Tanka, Grand père vénéré »
Tu es le dieu soleil et le dieu ciel »
Lebonhaume (Charles): Encyclopédie pratique de la magie universelle, rites et rituels du monde entier des origines à nos jours, Editions Trajectoire, 2000, p 47.

80- إلياد (مرسيا): تاريخ المعتقدات والأفكار الدّينيّة، ج 1، (سبق ذكره)، ص 120

81- لاراواشاستري (د. شاكوانتا): الكتاب الهنديّ المقدّس: فصل الاتّحاد عبر الفلسفة، آية 7، (سبق ذكره)، ص 30

82- المرجع نفسه، آية 43، ص 34

83- المرجع نفسه، فصل الاتّحاد عبر المعرفة، آية 38، ص 54

84- المرجع نفسه، فصل التّكريس للبوّابات الثلاث، فرع الإيمان، آية 17، ص 131

حتّى يتحقّق الخلاص والاتّحاد، «فالتّواصل والوحدة الدّاخليّة الّتي تتيحها الصّلاة تساعد في تحقيق التجربة الجماعيّة الروحيّة»[85]، واحتوت الأفيستا عدّة ترانيم تعبّر عن الإيمان، وتوجّه السّالك إلى طريقه من ذلك قول زرادشت: «أسألك يا آهورامازدا أن تمنح لفراشا أوشترا تواصلًا مبهجًا مع الحقّ، وأن تمنحني الإيمان بكلّ ما هو خيّر وطيّب في مملكتك، وسنكون إلى الأبد رسلك أنت»[86]، إنّ السّمة المميّزة للإيمان في هذه الأديان أنّه طاقة تنتمي إلى عالم السّماء، فالمصريّ يطلب من الآلهة الـ(مات) بالصّلاة، والهندوسيّ يطلبها بالتّعبّد الرّوحيّ، وزرادشت يسأل الله أن يمنحه الإيمان؛ لأنّه هو الحقيقة الجوهريّة للدّين، والثّمرة الّتي يدركها العبد، وتحلّ فيه بعد القيام بالطّقوس والشّعائر لإتمام التّوحيد؛ فهو شعور نبيل يعيش به العبد عالمه الأرضيّ على أمل أن يحقّق له السّعادة الرّوحيّة والخلاص الأبديّ.

الخاتمة:

عبّرت تجربة الطّاعة - من خلال طقس الصّلاة (القربان الرّوحيّ) - عن اشتراك هذه الأديان في هذه الآليّة الطّقسيّة الّتي تحقّق للفرد الرّاحة النّفسيّة، ذلك أنّ السّلوك التّعبّديّ - بتمظهراته المختلفة - يعبّر عن أعمال وآداب تظهر وقارًا واحترامًا كبيرين للآلهة المعبودة؛ فالأناشيد والترانيم والأدعية - كلّها - أقوال تعبّدية تتغنّى بعظمة الآلهة ومجدها، وغاية المؤمن من تجربته الإيمانيّة طلب البركة والخلاص من قوى الشّرّ، وقد تجلّى هذا النّشاط الباطنيّ الرّوحانيّ بكثرة في النّصوص المكتوبة والمرويّات الشّفويّة المفعمة بالأمل، والرّغبة بالحلول والاتّحاد في الذّات الإلهيّة النّورانيّة؛ للتّخلّص من ظلمة العالم السّفليّ، والمؤمن يسعى - من خلال تجربته هذه - إلى بلوغ ما هو أكمل وأفضل لتجاوز الضعف البشريّ والنّقص، من خلال الالتزام الأخلاقيّ بالسّلوك العمليّ التّعبّدي، والانتقال إلى مستويات غير اعتياديّة من العاطفة الدّينيّة بتكريس القوى الذّهنيّة والبدنيّة والاستعداد النّفسيّ، ليتحقّق الصّفاء الرّوحيّ للفرد، ويتمكّن من مناجاة إلهه. إنّ الغاية من هذا العمل الطّقسيّ في هذه الأديان؛ هي طلب الطمأنينة الآنيّة والسّلم الآخرويّ، وهي الحقيقة التي تشترك فيها كلّ الأديان، وإن اختلفت آليّات طلبها، إلّا أنّها تلتقي في نفس المقصد والغاية، على الرغم من اختلاف الأنساق الثّقافيّة (المعجم الدّينيّ والمفاهيم التّيولوجيّة) من ديانة إلى أخرى، فقد صيغت نصوص الصّلاة حسب تمثّلات أصحابها ومعارفهم، وتجديد الصّلة بين الفرد ومعبوده لا يتمّ إلّا بطقس الصّلاة، باعتبارها الشّفرة الرّمزيّة الّتي يناجي بها المؤمن إلهه.

مثّلت الصّلاة البؤرة الّتي نرى من خلالها الوعيَ الدّينيَّ لدى أتباع الأديان غير الكتابيّة؛ فاتّساع الهوّة الحضاريّة بين الأمم لا يغيّر اشتراكها في فعل الصّلاة لآلهة السّماء، ذلك أنّ الدّين لا يعترف بالرقيّ

85- La communication et l’union intérieure sont stimulées par ces prières qui contribuant à réaliser l’expérience interpersonnelle du mystique », (Poupard) Paul: Dictionnaire des religions, p 1359.

86- عبد الرّحمن (د. خليل): الأفيستا، هايتي 49، (الصّراع بين أنصار الشّرّ والخير)، آية 8، (سبق ذكره)، ص 90

والتّمدّن؛ لأنّ الفطرة الإنسانيّة هي الّتي ألهمت الضّمير الجمعيّ ليصنع آلهته بأيديه، ويقرّب لها القرابين والتّقدمات، ويتصوّرها امتدادًا للآلهة العلويّة، وإن امتزجت بالسّلطة الزّمانيّة (الملك/ الكاهن الأعلى) الّتي لم تُغيّر من فاعليتها شيئًا؛ بل - على العكس - دفعت بها إلى الأمام، وشرّعت لصورة الله في الأرض، وإن اختلفت اللّغات والثقافات إلّا أنّ الأساطير تشترك في أزليّة الإله، وتعبّر عن الرّغبة البشريّة في تجدّد العالم والحياة، فالدّين لا يعترف بالاختلاف في اللّغات والتّلوين الثّقافيّ، فحتّى نصوص الوحي في الأديان السّماوية تؤكّد ذلك التّقارب بلغة أكثر تعبيرًا وصفاء.

قائمة المراجع:

المراجع باللّغة العربيّة:

- العقّاد عبّاس محمود: الله، نهضة مصر، ط 3، ديسمبر/ 2003م.

- إلياد مرسيا: تاريخ المعتقدات والأفكار الدّينيّة، ج 1، ترجمة: عبد الهادي عبّاس، مطبعة دار دمشق، ط 1، 1986-1987م.

- بنوا لوك: المذهب الباطنيّ، ترجمة: نهاد خياطة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط 1، 1998م.

- تشرني ياروسلاف: الدّيانة المصريّة القديمة، ترجمة: د. أحمد قدري، دار الشّروق، ط 1، 1996م، ص 161.

- ديماس فرانسوا: آلهة مصر، ترجمة: زكي سوس، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط 2، 1998م.

- سعفان كامل: معتقدات آسيويّة، دار النّدى، ط 1، 1999م.

- سعيد حبيب: أديان العالم، صدر عن دار التّأليف والنّشر الكنيسة الأسقفيّة، القاهرة، (د.ت).

- عبد الرّحمن خليل: الأفيستا: الكتاب المقدّس للدّيانة الزّرادشتيّة، روافد للثّقافة والفنون، ط 2، 2008م.

- لاراواشاستري (د. شاكوانتا): باجافاد جيتا، الكتاب الهنديّ المقدّس، ترجمة: رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار، ط 1، 1993م.

- لوبون غوستاف: حياة الحقائق، ترجمة: عادل زعيتر، دار بيبليون، باريس ط1، 2005م.

- جيب هاميلتون: علم الأديان وبنية الفكر الإسلاميّ، ترجمة: الدّكتور عادل العوّا، ط 1، أكتوبر/ 1977م.

- فروليش جـ. س: ديانات الأرواح الوثنيّة، ترجمة: يوسف شلب الشّام، مطبعة دار المعلّم، ط 7، 1988م.

المراجع باللّغة الأجنبيّة:

- Eliade Mircea, Images et symboles, essais sur le symbolisme magico-religieux Editions Gallimard , 1952, renouveler en 1980.

- Lebonhaume Charles: Encyclopédie pratique de la magie universelle, Rites et rituels du monde entier des origines à nos jours, Editions Trajectoire, 2000.

- Meslin Michel: Pour une science des religions, au éditions du Seuil, imprimé en France.

- Mauss Marcel: La prière, édition Temporaire du 3 octobre 2002 réalisée à Chicoutimi, Québec.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017